

إعداد المجتمع للحياة

أوروبا نموذجا

أقصد بهذا المصطلح : كيفية قيام الانسان فى اى مكان فوق الأرض بتطويع وتطوير البيئة التى يعيش فيها أو تحيط به ، لكى تصبح ملائمة لحياته ومريحة لعمله ورفاهيته على أفضل صورة ممكنة.

ومن الواضح أن شعوب العالم ليست متساوية المحظوظ بالنسبة إلى البيئات التي توجد فيها . فبعضها يعيش ميسورا في بيئة غنية الموارد ، وبعضها الآخر يعاني من بيئة فقيرة وقاحلة ، بعضها تهطل علي أرضه الأمطار وتجرى فيها الأنهار بينما يعاني بعضها الآخر من التصحر والجفاف .

لكن من طبيعة الانسان انه مخلوق يستطيع ان يتكيف مع مختلف الظروف ، ويمكنه ان يحصل على حاجاته الاساسية من المطعم والملبس والسكن . وفي سبيل تحسين وتطوير هذه الحاجات الاساسية الثلاث ، انقسم العالم حاليا الى قسمين كبيرين : احدهما متقدم ، والآخر متخلف .

أما القسم المتقدم فهو الذي بذل فيه الانسان جهدا شاقا ، استغرق زمنا طويلا ، لكي يحسن وسائل الحياة فيه ، سواء للفرد أو للمجتمع كله ، ومن اجل ذلك اخترع الأدوات البدائية ثم الآلات الميكانيكية وأخيرا الأجهزة الالكترونية وذلك كله من أجل توفير جهده العضلي ، والحصول على أفضل عائد من النتائج المنشودة .

أما القسم الآخر من العالم فقد ظل — كما كان من مئات السنين — منكفئاً على ذاته ، يعيش حياته يوماً بيوم ، غير مقدر لقيمة التطور ، الذى يقوم على العلم ، ولا للنتائج المترتبة عليه ، لذلك فقد ترك البيئة المحيطة به تتعقد وتتشابك وتندحر دون ان يتدخل لتهدئتها واسغلال مواردها لصالحه .

فى أوروبا مثلاً ، يهطل المطر فى معظم شهور العام ، ولما يكاد ينقطع طوال الليل والنهار ، ومع ذلك فقد استطاع الانسان هناك أن يهـل لنفسه البيئة التى لا يؤثر فيها هذا المطر المتواصل ولما البرد القارس من خلال بناء المنازل بصورة تحمي سقوطها من تساقط المطر ، ورفض الشوارع بأسلوب خاص بحيث لا تتجمع فيها المياه ، حيث يتم صرفها مباشرة فى فتحات تحت الارصفة . وهكذا بمجرد توقف المطر ، تعود الشوارع جافة ونظيفة ومبهجة . وبالنسبة الى البرودة التى تصل احياناً الى ما تحت المصفر ، تتوافر التدفئة اللازمة فى البيوت والمقاهى واماكن العمل ومحطات المترو والمقطارات .

وفيما يتعلق بالصرف الصحى ، قام الانسان هناك ببناء مدن بكاملها تحت المدن السكنية ، وهى عبارة عن مجموعة شبكات رئيسية وفرعية لتصريف المجارى بحيث يتم تجميعها فى اماكن محددة ، حيث يجرى تنقيتها ومعالجتها للاستفادة منها فى الزراعة والتسميد ، وبالتالي لا يوجد فى اى بلد اوروبى ما يعرف بـ : طفح المجارى !

أما مشكلة القمامة التي تعاني منها بلاد العالم المتخلف (والتي نطلق عليها مجاملة : البلاد النامية) فقد توصل الانسان الاوربي الى حلها منذ وقت طويل . والميوم ، اصبح المواطن يشارك بكل وعى وطوعية فيه : فقد اصبح كل فرد يقوم بوضع أصناف القمامة التي يلقيها فى حاويات مخصصة لذلك : الزجاجات الفارغة فى واحدة ، والفوارغ المعدنية فى الثانية ، ثم بقايا الطعام والأوراق المستعملة فى الثالثة . وهذه الأصناف الثلاث لا تلقى فى أكوام بالعراء ، وإنما تنقل إلى مصانع ضخمة تقوم بتدويرها ، وإعادة تصنيعها ، والافادة من محروقاتها فى تدفئة الأماكن العامة .

وبالنسبة الى المواصلات ، التي تمثل عصب العمل فى المجتمع ، نجح الانسان هناك فى عمل شبكة متكاملة من الطرق ، السريعة والمبديلة ، وكلها مرصوفة بصورة جيدة . وعلى جانب هذه الطرق تنساب القطارات السريعة والأسرع من الصوت بكل دقة وانتظام . هذا بين المدن الرئيسية ، أما داخل المدينة الواحدة وضواحيها ، فهناك المترو ، والأوتوبيس الذى لا يسمح فيه براكب يقف على قدميه ! ثم التاكسى الذى لا يقبل سوى راكب واحد ، وأخيرا السيارات الخاصة وكل ذلك من أجل ان ينتقل الانسان من منزله الى مكان عمله وبالعكس على نحو مريح ، ودون أن يفقد جزءا من طاقته وأعصابه فى الطريق .

أما مكان العمل فتتوافر فيه كل الظروف اللازمة لراحة الموظفين من ناحية وسلاسة الاجراءات للمواطنين من الناحية الاخرى . الكل ملتزم بمواعيد الحضور والانصراف دون تكاسل أو أعذار . والنشاط هو السمة الغالبة ، كما لا توجد رشوة ولا محسوبية . والموظف الذى لا يحب عمله بإمكانه ان يبحث عن عمل آخر حتى لا يعيش يائسا او مكتئبا . ومدة العمل فى أوروبا كلها تبدأ من الثامنة صباحا وتنتهى فى الخامسة ، يتخللها ساعة واحدة لتناول وجبة خفيفة فى الساعة الثانية عشرة ظهرا .

اما الجمهور الذى لديه معاملة فى إحدى المصالح الحكومية فلا يقال له أبدا: (فوت علينا بكره) لأن الكمبيوتر يقدم كل المعلومات المطلوبة فى لحظة خاطفة .

وبعد العمل الجاد طوال الأسبوع ، تأتى الأجازة التى تمتد يومين كاملين (السبت والأحد) . وهناك من ينادى بجعلها ثلاثة أيام ؛ وذلك لكى يستريح الانسان جسما وعقلا وروحا ، حتى يكون أكثر قدرة على مواصلة العمل بعد ذلك بكل همّة ونشاط . وهكذا تصبح الفرصة متاحة أمام الموظف أو العامل لممارسة هوايته المفضلة ، مثل الخروج إلى الضواحي أو الريف ، وفى فصل الصيف إلى الشواطئ ، أو الذهاب إلى السينما أو المسرح ، أو تبادل المزيالرات مع الأهل والاصدقاء .

وفىما يتعلق بحرية الرأى والتعبير لمن يريد أن يمارسها ، تفتح الأحزاب السياسية أبوابها لمن يرغب فى الانضمام إليها ، وفيها يحق لكل من له طموح سياسى أن يعبر عنه ، وأن يتناقش فيه مع زملائه ، فضلا عن قيامه ببعض الأعمال ذات الطابع الاجتماعى أو الخيرية . ولما شك أن هذه الفرصة تتيح للفرد ألا ينعزل او يتقوقع أو يقع فريسة لبعض التجمعات الخارجة على نظام المجتمع.

أما الجانب الاخلاقي ،وهو المتصل مباشرة بالسلوك الفردي ، فإن الانسان الأوربي يعتبره من الأمور الشخصية التي لا يتدخل فيها أحد ، أى أنها متروكة لاختيار كل شخص حسب ما تمليه عليه تجربته الإنسانية وثقافته العامة ، دون أن يحاول فرضها على الآخرين . وعموما فإن هذا الجانب هو الذى يباعد بين ثقافة الغرب وثقافة الشرق ، ويؤدى أحيانا إلى رفض (كل) ما لديه .

لكن مما يحسب للإنسان الأوربي أنه نجح فى القضاء على الأمية ، وبذلك استطاع أن يحرر الأفراد من الجهل ، وبالتالي عدم استقاء معلوماتهم من أشخاص غير مؤهلين قد يضللونهم أو يخدعونهم . إن من يستطيع أن يقرأ هناك تنفتح أمامه آفاق واسعة من المعرفة فى مختلف مجالات الحياة ، وهذا ما يجعله يقف على الحقائق بدلا من الشائعات ، وعلى وسائل النجاح الحقيقية بدلا من الوقوع فى فوضى الاجتهادات . وهنا تقوم دوائر المعارف ، العامة والمتخصصة ، والقواميس وسلاسل المعرفة المبسطة بدور كبير للغاية فى تثقيف وتوعية الجميع فإذا أضفنا إلى ذلك ما تم أخيرا من تطور هائل فى وسائل الإعلام ، وما أتاحتها شبكة الانترنت — أدركنا إلى أى مدى وصل الإنسان الأوربي فى ميادين المعرفة والثقافة العامة .

وهنا لا بد أن نستعين ببعض المقارنة : فقد كان الفارق كبيرا جدا بين الغرب الأوربي الذى سبق إلى إعداد المجتمع للحياة لديه على نحو جيد كما رأينا ، وبين الشرق الذى تأخر عنه حوالى قرنين من الزمان . لكن الخمسين سنة الماضية شهدت انطلاقة كبرى فى الشرق الأقصى (اليابان ، الصين ، الهند .. الخ) بحيث بدأت تقترب ، بل أحيانا تتفوق على الدول الأوروبية العتيقة . وهكذا أصبح كل من الشرق والغرب يتقاسمان التقدم ، ويتشابهان فى إعداد المجتمع للحياة .

أما المشرق الأوسط الذى يقع جغرافيا بين أوروبا والمشرق الأقصى فهو الذى ما زال متعثرا فى خطواته ، وغارقا فى جدل لفظى حول أهمية التقدم ؟ ومناهجه ؟ ووسائله ؟ وإمكانياته ؟ — والمشكلة الأهم أن الأفراد فيه ، مثل الدول تماما ، حين يختلفون فى الآراء والرؤى يتحولون إلى أعداء ، يضرب بعضهم رقاب بعض !

إن إعداد المجتمع للحياة لا تبدأ من فراغ ولما بصورة عشوائية ، وإنما من تلبية الحاجات الثلاث الضرورية للإنسان ، وهي المأكل والملبس والسكن ، وليس المقصود بالطبع مجرد توفيرها وإنما الارتقاء بها إلى أفضل نحو ممكن . فلا بد أن يخلو المأكل من التلوث ، والملبس من الإضرار ، والسكن من العشوائية .. ويكفى أن يلقي المسافر بالطائرة نظرة من الجو على أي مدينة أوروبية أو آسيوية حاليا ليُشاهد : دقة التخطيط ، وجمال التنظيم ، من خلال مجمعات المساكن المتناسقة ، والطرق الرئيسية والفرعية التي تتخللها ، بالإضافة طبعا إلى حدائق المنازل ، والأشجار التي تحيط بها ، وإشارات المرور التي تضبط حركة المرور فيها . ومن المؤكد أن هذا كله لم يأت من فراغ ، بل إنه يخضع بكل دقة لتخطيط جيد ، وتنفيذ كفء ، ومتابعة يقظة ، وصيانة مستمرة ، بالإضافة إلى قانون صارم يعاقب كل خارج على أحد على تعليه مبنى أطول من المباني المجاورة ، أو يشغل الرصيف أمام منزله بسلسلة تعوق حركة المشاة .

هذا مجرد مثال . لكنه يعبر عن أن إعداد المجتمع للحياة يبدأ وينتهى بإعمال العقل فى دراسة البيئة ، وحل مشكلاتها ، وعدم إضاعة الوقت والجهد فى جدليات فارغة ، ودوران لا نهاية له حول أمور لا تقدم فى كل يوم شيئا مفيدا لحياة الإنسان .

ولعلنا الآن في غير حاجة إلي أن نؤكد علي أن إعداد المجتمع للحياة لا يتناقض فقط مع المجهل والإهمال واللامبالاة ، وإنما أيضا مع التعصب والتطرف والإرهاب. ومن الطبيعي ألا يتعايش البناء مع الهدم ، ولما النظام مع الفوضى ، ولما الجمال مع القبح والخراب . وهنا نصل إلي نقطة علي درجة كبيرة من الأهمية، وهي ضرورة أن تتناسق وتتعاون القوانين في الدولة مع ثقافة المجتمع وسلوكه الطوعي ، وإيمانه بأن الحياة لا تستقيم إلا بأكبر قدر من الالتزام ، وعدم تغليب المصلحة الشخصية للفرد علي الصالح العام للمجتمع الذي يعيش فيه ، والذي يجري إعداده أيضا لاستقبال أجيال جديدة من الأبناء والأحفاد من بعده .